

الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

بقلم /

د. عزت علي عيد عطية

أستاذ مساعد بكلية الشريعة بالقصيم
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

إن ظاهرة الوحي من أهم الظواهر التي تتصل بعلاقة الناس بربهم أو بتدينهم على وجه العموم ...

وإذا أردنا أن نلخص رسالة الإسلام في كلمة واحدة نستطيع أن نقول إنها الوحي ...

ومن هنا حرص أعداء الإسلام قديماً وحديثاً وسيظل ذلك ديدنهم على التشكيك في ظاهرة الوحي ، ومحاولة ربط التعاليم الإسلامية بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم البشرية .

ولأمر ما ابتدأ الإمام البخاري صحيحه بباب كيف بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأنه يريد أن يقول : إن كل ما يذكر من النصوص الإسلامية إنما هو قائم على أساس من الوحي الثابت الذي لا يؤثر في ثبوته أي إنكار .

من هنا كانت العناية ببحث هذا الموضوع ، والحديث عنه - فيما نرى - من الأمور اللازمة لتعرف الناس على أهم ملامح النبوة ، وقطع دابر التشكيك ، والعيش مع رسالة الله إلى الناس ...

ولا نزعم أننا نبدأ من فراغ ، فقد اعتنى العلماء بدراسة هذا الموضوع ، ورغم كثرة الدراسات حوله فما زال الموضوع في حاجة إلى البحث ، وما زال لنا - إن شاء الله - مجال للحديث .

أولاً : المقصود بالوحي :

١ - يقصد بالوحي الصلة بين الله ورسوله التي يتيسر عن طريقها تلقي الشرع والتعرف على الرسالة .

وسميت هذه الصلة وحياً لأنها في حقيقتها أمر خفي لا يدركه غير المرسل إليه ، قال أبو إسحاق : وأصل الوحي في اللغة كلها الإعلام في خفاء ، ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً .

وقال ابن الأنباري عما يلقيه الله إلى أنبيائه : سمي وحياً لأن الله أسرّه على الخلق ، وخص به النبي المبعوث إليه .

٢ - وقد ورد الوحي في النصوص الشرعية على معانٍ مختلفة ، ويمكن إجمالها فيما يلي :

أ - الإلهام : ويقصد به أن يلقي الله في النفس أمرا يبعث على الفعل أو الترك من غير سبب ظاهر ، قال تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) .

ومن مظاهر هذا النوع ما يدل عليه قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون)
ويطلق على هذا النوع الإلهام الغرزي أو الفطري ..

ومما يدل على هذا النوع قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) .. أي ألهمناها ذلك وقذفناه في قلبها على ما رجحه العلماء .

ومنه أيضا قول الله سبحانه : « يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها » .

ومنه أيضا قوله سبحانه وتعالى : وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي « أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم .

ب - الوسوسة وتزيين الشر للإنسان : ومنه قوله تعالى : « وإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ » وقوله : « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » أي يلقي بعضهم إلى بعض الكلام المزين المزخرف الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره .

ج - الإشارة والإيماء : ومنه قوله تعالى عن زكريا عليه السلام « فخرج :

على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » . قال
الفراء : أى أشار إليهم وهو معروف في الشعر ، قال الشاعر :

نظرت إليها نظرة فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاتها
فأوحى إليها الطرف أني أحبها فأثر ذاك الوحي في وجنتها

د - الكلام الإلهي المباشر : ويمثل في خطاب الله لموسى عليه السلام في أول

رسالته ، وفيما بعد ذلك ، ومن حديث القرآن عن هذا النوع من
الوحي قوله تعالى : « وهل أتاك حديث موسى ، إذ رأى نارا فقال
لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار
هدى ، فلما أتاها نودي يا موسى ، إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك
بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله
لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها
لتجزى كل نفس بما تسعى » ... وتستمر الآيات في الحديث عن ذلك .

وفي سورة النحل والقصص تصوير لهذا الموقف ، وبيان لهذا
النوع .

ومما يدل على ذلك أيضا قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه
ربه قال رب أرني أنظر إليك قال : لن تراني ولكن انظر إلى الجبل

فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ، قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين .

هـ - الرؤيا في المنام : ويتمثل ذلك في قول الله تعالى عن إبراهيم وابنه عليهما السلام : « فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .

قال عبيد بن عمير : رؤيا الانبياء وحي ، وتلا : « إني أرى في المنام أني أذبحك » رواه البخاري .

و - الوحي بواسطة الملائكة : وهو أظهر أنواع الوحي وأكثرها ومما يدل عليه قول الله تعالى : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » .

وقوله سبحانه : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » .

والآيات الواردة في نزول جبريل على الرسول ﷺ ، وسنعرض لها -
فيما بعد - بالتفصيل ، من أظهر الأدلة على ذلك .

ز - وقد يطلق الوحي على الموحى به مكتوبا أو متلوا : قال تعالى :
« وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » وقال : « قل إنما
أنذركم بالوحي » أي بما أوحاه الله إلي ، وهو أحد الوجوه التي تفهم من
الآية .. ومن ذلك قوله ﷺ :

« ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ،
وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم
تابعا يوم القيامة » .

ثانيا : الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لم يكن الوحي إلى رسول الله ﷺ بدعا ولا مخالفا لما سبق من أحوال
الأنبياء قبله ، قال تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين
من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط
وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ، ورسلا قد
قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً » .

وقال : « قل ما كنت بدعا من الرسل » أي ما كنت أول من أرسل ، قد
أرسل قبلي رسل كثير . والمقصود من ذلك أن الوحي لو لم يكن واردا لمن

قبله من الأنبياء لكان أمره غريبا وحاله عجيبا ، لكن ظاهرة الوحي قد تكررت بحيث لا يوجد ما يدعو إلى إنكارها على محمد ﷺ بعد إثباتها لمن قبله من الأنبياء ، وبعد قيام الأدلة الصادقة عليها .

ويتحدث القرآن عن ملك الوحي حديثا بينما يعطي فكرة عنه فيما يتصل باسمه ولقبه وصفته ومنزلته بين الخلق فيقول :

« قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » .

ويقول : [« وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » .

ويقول : [« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وبشرى للمسلمين » .

وهذه الآيات تبين أن الملك النازل بالوحي على الرسول ﷺ هو جبريل ، وأنه يطلق عليه الروح ، وروح القدس .. أما فيما يتصل بالتعريف ببعض صفاته فيتمثل ذلك في قوله تعالى عن القرآن أو الوحي : « ان هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى » .

وقوله تعالى عن القرآن أيضا : « إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة

عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه
بالأفق المبين » .

وإذا كانت هذه الصورة للوحي لا تكاد تتضح فيما يتصل بكيفية خلقه ،
فإن الأحاديث النبوية تكفلت بالحديث عن ذلك ، روى الإمام أحمد في
مسنده بسند جيد قوي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت
جبريل وله ستمائة جناح ، ينتثر من ريشه التهاويل من الدر والياقوت » .

وروي بإسناد حسن عن ابن مسعود قال : رأى رسول الله ﷺ جبريل
في صورته ، وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من
جناحه من التهاويل من الدر والياقوت ما الله به عليم » .

وروى البخاري وغيره عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : جاورت
في حراء ، فلما قضيت جوارى هبطت فاستبطنت الوادي ، فنوديت ،
فنظرت أمامي وخليتي وعن يميني وعن شمالي ، فإذا هو جالس على عرش بين
السماء والأرض فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا على ماء باردا ، وأنزل
علي : يا أيها المدثر ، قم فأنذر ..

وفي رواية للبخاري عن جابر قال : سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن
فترة الوحي ، فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء ،
فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء

والأرض فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فذروني ،
فأنزل الله تعالى : يا أيها المدثر - إلى - والرجز فاهجر ، قبل أن تفرض
الصلاة .

هذا الملك الكريم ، ملك الوحي ، متى نزل على الرسول ﷺ بالرسالة ؟
لقد نزل عليه وهو في سن الأربعين ، وكان ذلك في رمضان ، أما
المكان فكان غار حراء .. روي أحمد والبخاري واللفظ له عن ابن عباس
قال : أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين فمكث ثلاث عشرة
سنة ، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفي
ﷺ .

وقد رجع العلماء هذه الرواية واعتمدوها وقدموها على ما ورد
مخالفاتها ، فقال السبيلي عما اشتملت عليه : وهو الصحيح عند أهل السير
والعلم بالآثر .. وقال النووي : هو الصواب وهو المروي في الصحيحين
عن أنس وابن عباس ، وروي أيضا عن عطاء وابن المسيب وجبير بن مطعم
وقبات ابن أشيم الصحابي .

وقد مهد الله لنزول الوحي على الرسول ﷺ بالرؤيا الصادقة فكان
لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، بل لقد نقل ابن إسحاق أن
أول نزول جبريل عليه كان في الرؤيا ، إيناسا له وتمهيدا للمواجهة في

اليقظة .. قال ابن إسحاق : وحدثني وهب بن كيسان - مولى آل الزبير - قال : سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي : حدثنا يا عبيد ، كيف كان ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من - النبوة حين جاءه جبريل ؟ فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس :

كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء في كل سنة شهرا يتحنث ، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية - والتحنث : التبرر - فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته . حتى إذا كان الشهر الذي أراد به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها - وذلك الشهر من رمضان - خرج إلى حراء كما كان يخرج لجواره ، ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد به ، جاءه جبريل بأمر الله تعالى ، قال رسول الله ﷺ : فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ .. قلت : ما اقرأ ؟ قال : فغطني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ .. قلت : ما اقرأ ؟ .. قال : فغطني حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ .. قلت : ماذا اقرأ ؟ ما أقول ذلك

إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ٠٠٠ إلى قوله : ما لم يعلم » قال : فقرأتها .

وكان هذا الموقف قبل نزول جبريل عليه في اليقظة ، وفي شهر رمضان الذي نزل عليه فيه يقظة ، تهيئة وتمهيدا وإيناسا وإعدادا ، روى أبو نعيم في الدلائل عن علقمة بن قيس قال : إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد ٠٠ قال ابن كثير : وهو كلام حسن ٠٠٠ وقد ورد في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري أن رسول الله ﷺ رأى ذلك في المنام ثم جاءه الملك في اليقظة .

قد يقول قائل : أما كان يكفي المنام ورؤيا الأنبياء وحي ؟ والجواب : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم أنه الوحي ، ولم يكن يظن أنه الرسول ، ولذلك لم يتحدث عن هذه الرؤيا ، ولم تثر عنده الإحساس بالنبوة والعلم باختيار الله له ، حتى فجأه الوحي ، فخشي على نفسه وسأل ... روى البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت :

أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ... قال : ما أنا بقارئ ..

قال : فأخذني فغطني حتي بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ .. قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتي بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ .. فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم .. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتي ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي .. فقالت خديجة : كلا والله ، ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ... فانطلقت به خديجة حتي أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرءا قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك .. فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى .. فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا .. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي .

علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن ما رآه هو الوحي ، فتشوقت نفسه إلى لقائه ونسي ما أحس به من رهبة وخوف حين واجهه .. وألحت عليه الرغبة في أن يعرف حقيقة ما حدث .. لا بد من التأكد من هذه الحقيقة ، فإذا رأى الوحي مرة أخرى ثم مرات علم أن الحق ما قال ورقة ، وإذا لم يتكرر فما السبيل إلى التأكد ؟ وما هي الرسالة التي سيحملها ؟ يقول راوي حديث عائشة - وهو الزهري على الراجح - ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال : يا محمد ، إنك رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك ...

وهذا القول من راوي الحديث وإن لم يذكر من حدثه به إلا أنه هو الموافق لتطور الأمر ، ولا عبرة بتحويل من يقول : إنها كانت محاولة انتحار .. متناسيا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن قد حمل الدين وعرف أحكامه ، وأن الشغف إلى الحق ، ومحاولة التأكد مما يحدث من الأمور قد يخرج بالمرء عن حالته العادية ، ويجعله غير مسئول في حالته تلك عما يصدر منه من أمور ..

على أن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على حب الرسول صلى الله عليه وسلم

للحق ، ورغبته في التعرف عليه ، وكان يعلم أن الله إذا كان قد اختاره لرسالته فسيحمله من السقوط ، وسييسر له سبيل المعرفة ، وهذا ما كان .

ويختلف العلماء في المدة التي فتر فيها الوحي عن الرسول صلى الله عليه وسلم .. فيروى عن ابن عباس أنها كانت أيما .. وروى عنه ما يدل على تحديدها بثلاث سنين وهي الفترة التي بين نزول « اقرأ باسم ربك » ونزول (يا أيها المدثر) روى البخاري عن عائشة وابن عباس قالا : لبث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن وبالمدينة عشرا . هذا وقد بين ابن حجر أن المراد بهذه الفترة تأخر نزول القرآن فقط ، وليس عدم مجيء جبريل .

لقد كان جبريل عليه السلام يزور الرسول صلى الله عليه وسلم وكان الرسول يستكثر من هذه الزيارة فيبين له جبريل أن الأمر ليس إلا إلى الله ، روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ قال : فنزلت : وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا .

ونزل الأمر بالإندار : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر » .. ثم حمي الوحي وتتابع نزول القرآن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا على ألا يتفلسف منه شيء ، فكان يحرك شفثيه بما يسمع ، وكان يتعجل التلاوة

ليتيسر له التكرار والحفظ ، فيسر الله له الحفظ بغير معالجة ، روى البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك شفثيه . : فأنزل الله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه » . قال : جمعه لك في صدرك وتقرأه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه .. قال : فاستمع له وأنصت .. « ثم إن علينا بيانه » : ثم إن علينا أن تقرأه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأ .

لقد ضمن الله له الحفظ بلا جهد ولا تعب ، وأعلمه أنه سيحفظ الموحى به في قلبه على الدوام بحيث لا يغيب منه شيء أو يسقط منه حرف ... قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [وكان جبريل يدارس الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن في كل رمضان فكان رمضان شهر القرآن نزولا وابتداء ، وكان شهر القرآن مدارس ومتابعة ، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان ، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة .

وازداد اتصال الوحي بالرسول صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته ، روى

البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الله تعالى تابع على
رسوله صلى الله عليه وسلم الوحي قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي ،
ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد .

وتكرر عرض القرآن مرتين في آخر رمضان مر بالرسول صلى الله عليه
وسلم في حياته الدنيوية .

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة وعن فاطمة بنت النبي صلى الله
عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر إليها أن جبريل يعارضني
بالقرآن كل سنة ، وأنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضراً أجلي .

ومات الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن أكمل الله الدين وأتم النعمة على
المسلمين ، ونزل قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

لقد مات بعد أن انتهى توجيه الإنسانية وبعد أن أعطيت المقاييس
النظرية والعملية التي تسير بها في كل زمان وفي كل مكان حتي يرث الله
الأرض ومن عليها . وبخفظ الوحي بقيت الرسالة حية تتحرك بين الناس ،
ترشد وتوجه وتقود وتسود ، وتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن
ربهم إلى العزيز الحميد .

ثالثا : كيفية الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

من المسلم به أن الواجب على المؤمن الإستسلام لأمر الله والطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم بلا توقف على معرفة كيفية ولا علة ... فإذا ما تحقق بالإيمان واطمأن به قلبه جاز له السؤال عن الكيفية ؟ ولا يدل سؤاله عنها على الشك ؟ فقد سأل إبراهيم عليه السلام ربه سبحانه : كيف تحيي الموتى ؟ .. قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي .

وكيفية الصلة بين الملك والرسول وانتقال الرسالة منه إليه أمر يحتاج إلى توضيح ، ومن هنا سأل الحارث بن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول .

والمأمل في هذا الحديث يجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزجر الحارث عن السؤال ، وذكر له كيفية نزول الوحي عليه من ناحية صورة الملك النازل به وهو جبريل عليه السلام ، ومن ناحية الحالة التي يكون عليها الرسول صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحي عليه .. ومن ناحية شدة الوحي وسهولته ، ومن ناحية كيفية وصول الوحي إليه صلى الله عليه وسلم .

ففيما يتصل بصورة الملك بين الحديث أنه إما أن ينزل على صورته الملكية أو ينزل على صورة رجل .. قال ابن حجر : والحكمة فيه أن العادة جرت بمناسبة بين القائل والسامع ، وهذه المناسبة يصورها الحديث إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول ، أو باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني .

ومما لا يحتاج إلى بيان أن الحالة التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم عليها حال نزول الوحي كانت مناسبة للحالة التي كان ينزل عليها الملك به .

أما فيما يتعلق بشدة الوحي وسهولته فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحالة الأولى كانت أشد عليه من الثانية ، ويفهم من ذلك أن الوحي كله شديد ، ولكن هذه الحالة كانت أشد ألوان الوحي ، والسبب في ذلك كما قال ابن خلدون أن الوحي مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقي كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها ، وانسلاخها عنها من أفقيها إلى ذلك الأفق الآخر ، وهذا هو معنى الغط الذي عبر به في مبدأ الوحي في قوله « فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقاريء ، وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث .

وهذه الحالة الشديدة من حالات الوحي هي التي كان ينزل فيها بالقرآن .. ولم ينزل بالقرآن - فيما نعلم - إلا على هذه الحالة ، والدليل على ذلك ما ورد من ثقل الوحي بالقرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

« إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » .. وقد بينت الروايات بعض مظاهر ثقل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة فيما رواه البخاري : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقاً » وروى أحمد بسنده عن عائشة قالت : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خديجة فأطنب في الثناء عليها ، فأدركني ما يدرك النساء من الغيرة فقلت : لقد أعقبك الله يا رسول الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيراً لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي أو عند المخيلة حتى يعلم رحمة أو عذاب .

وروى أحمد بسنده وابن جرير والحاكم وصححه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائها فما تستطيع أن تتحول حتى يسرى عنه وتلت : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » . وجران البعير مقدم عنقه من مذبجه إلى منحره .

ومن مظاهر ثقل الوحي عليه ما رواه أحمد بسنده عن زيد بن ثابت قال : إني قاعد إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم إذ أوحى إليه وغشيته السكينة ، ووقع فخذه على فخذي حين غشيته السكينة ، فلا والله ما وجدت شيئاً قط أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سري عنه فقال : اكتب يا زيد ، فأخذت كتفا ، فقال : اكتب : لا يستوي

القاعدون من المؤمنين والمجاهدون - الآية كلها - إلى قوله - أجرا عظيما .. فكتبت ذلك في كتف ، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم - وكان رجلا أعمى - فقام حين سمع فضيلة المجاهدين قال : يا رسول الله ، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد ممن هو أعمى وأشبهه ذلك ؟ قال زيد : فوالله ما مضى كلامه أو ما هو إلا أن قضى كلامه غشيت النبي ﷺ السكينة فوقعت فخذته على فخذي فوجدت من ثقلها كما وجدت في المرة الأولى ثم سري عنه فقال : اقرأ ، فقرأت عليه : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون : فقال النبي ﷺ : غير أولى الضرر .. قال زيد : فألحقها ، فوالله لكأنني أنظر إلى ملحقها عند صدع كان في الكتف .

بل قد ورد عن الرسول ﷺ ما يصور هذه الشدة فيما رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : سألت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هل تحس بالوحي ؟ فقال : أسمع صلاصلا ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض - وقد تقدم قول ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ..

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن تتابع الوحي قد أفضى بالتدريج إلى نوع من الاعتياد خفف شيئا فشيئا من هذه الشدة ، قال ابن خلدون : ولذلك كان نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر منها وهو بالمدينة .

ومما هو جدير بالنظر أن نذكر أن نزول الوحي على الصورة الأولى

لم يقتصر على القرآن ، روى البخاري بسنده عن صفوان بن يعلى بن أمية أن
يعلى كان يقول : ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي ، فلما
كان النبي ﷺ بالجعرانة وعليه ثوب قد أظل عليه ومعه ناس من أصحابه
إذ جاءه رجل متضمن بطيب ، فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل
أحرم في جبة بعد ما تضمن بطيب ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ،
فجاءه الوحي ، فأشار عمر إلى يعلى أن تعال ، فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا
هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة ، ثم سري عنه ، فقال : أين الذي يسألني عن
العمرة آنفا ؟ ، فالتمس الرجل ، فجيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجبة فانزعها ثم اصنع في
عمرتك كما تصنع في حجبك .

وروى البخاري بسنده عن عطاء بن يسار أنه سمع أبا سعيد الخدري
رضي الله عنه يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر
وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة
الدنيا وزينتها ، فقال رجل : يا رسول الله ، أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت
النبي صلى الله عليه وسلم ، فقليل له : ما شأنك تكلم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ولا يكلمك ، فرأينا أنه ينزل عليه ، قال : فمسح عنه الرخصاء (العرق
الكثير) فقال : أين السائل ؟ وكأنه حمده .. فقال : إنه لا يأتي الخير بالشر ،
وإن مما ينبت الربيع ما يقتل أو يلم إلا آكلة الخضراء أكلت حتى إذا امتدت

خاصرتها استقبلت عين الشمس فتلطت وبالت ورتعت ، وإن هذا المال خضرة حلوة فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل وإياه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيدا عليه يوم القيامة .

هذا عن الصورة الأولى ، [أما عن الصورة الثانية حيث يتمثل الملك رجلا فقد ورد في بيانها نصوص كثيرة ، منها ما رواه الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشي ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر .. قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان .. قال يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رؤس الناس فذاك من أشراطها ، في خمس لا يعلمهن إلا الله .. » ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام » .. ثم انصرف الرجل ، فقال : ردوا علي ، فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا .. فقال : هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم .

وهذا الحديث يدل على أن جبريل أتى في صورة رجل .. وفي بعض روايات هذا الحديث عن عمر أنه جاء في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ..

وروى النسائي بسند صحيح من حديث ابن عمر أن جبريل كان يأتي على صورة دحية الكلبي ، وكان دحية جميلا وسيما إذا قدم لتجارة خرجت الظعن لتراه .

وأخرج الحاكم عن عائشة قالت : رأيت جبريل واقفا في حجرتي هذه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناجيه ، فقلت : يا رسول الله ، من هذا ؟ قال : بمن شبهته ؟ قلت بدحية .. قال : لقد رأيت جبريل .

ودحية هذا كان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، وكان الصحابة يرون صورته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يتبين لهم أنه كان بعيدا عن المدينة في الوقت الذي رأوا صورته .

وأخرج أحمد في سنده والخرائطي في مكارم الاخلاق من طريق أبي العالية عن رجل من الأنصار قال : خرجت من أهلي أريد النبي صلى الله عليه وسلم فإذا به قائم ورجل معه مقبل عليه : فظننت أن لهما حاجة . قال الأنصاري .. لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جعلت أرتي له من طول القيام . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، لقد قام بك هذا الرجل

حتى جعلت أرثي لك من طول القيام ، قال : أو قد رأيته ؟ .. قلت : نعم ..
قال : أو تدري من هو ؟ قلت : لا .. قال : ذاك جبريل ، ما زال
يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .. ثم قال : أما إنك لو سلمت
رد عليك السلام .

وأخرج أحمد والطبراني والبيهقي في الدلائل عن حارثة بن النعمان قال :
مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل ، فسلمت عليه
ومررت ، فلما رجعنا وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم قال : هل رأيت
الذي كان معي ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه جبريل وقد رد عليك السلام .

وأخرج أحمد والبيهقي عن ابن عباس قال : كنت مع أبي عند رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده رجل يناجيه ، فكان كالمعرض عن أبي ،
فخرجنا : فقال لي أبي : يا بني ، ألم تر إلى ابن عمك كالمعرض عني ؟ قلت :
يا أبت ، إنه كان عنده رجل يناجيه .. فرجع فقال : يا رسول الله ، قلت
لعبد الله كذا وكذا .. فقال : إنه كان عندك رجل يناجيك فهل كان عندك
أحد ؟ قال : وهل رأيته يا عبد الله ؟ قلت : نعم ، قال : ذاك - جبريل ، هو
الذي يشغلني عنك .

ولم يقتصر الوحي على هاتين الصورتين ، بل ورد في صور أخرى يمكن
أن ندرجها فيها ، ويمكن أن نجعلها أقساما مستقلة ، ومن ذلك الرؤيا ، وقد

اشتملت كتب السنة على الكثير من مظاهر هذه الصورة ونكتفي بذكر لقطة واحدة منها تمثل المعراج بالمدينة ، وهو غير المعراج الذي صاحب الإسراء .. روى البخاري بسنده عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : من رأى منكم الليلة رؤيا ، فإن رأى أحد قصها ، فيقول ما شاء الله ، فسألنا يوما فقال : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا : لا .. قال : لكنى رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كlob من حديد يدخله في شدة حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعل بشدة الآخر مثل ذلك ، ويلتئم شدة هذا فيعود فيصنع مثله ، قلت : ما هذا ؟ قالوا : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة فيشدخ بها رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، فانطلق إليه ليأخذه ، فلا يرجع هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه ، قلت : من هذا ؟ قالوا : انطلق فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نار فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا فإذا خمدت رجعوا فيها ، وفيها رجال ونساء عراة ، فقلت : من هذا ؟ .. قالوا : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم ، على وسط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردده حيث كان ، فجعل كلما جاء

ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان ، فقلت : ما هذا ؟ قال : انطلق ، فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة ، وفي أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها ، فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني دارا لم أرقط أحسن منها ، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان ، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارا هي أحسن وأفضل فيها شيوخ وشباب ، فقلت : طوفتاني الليلة فأخبراني عما رأيت ، قال : نعم ، أما الذي رأيته يشق شدة فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة .. والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة ، والذي رأيته في الثقب فهم الزناة ، والذي رأيته في النهر آكلو الربا ، والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام ، والصبيان حوله فأولاد الناس ، والذي يوقد النار مالك خازن النار .. والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين ، وأما هذه الدار فدار الشهداء ، وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك ، فرفعت رأسي فاذا فوقى مثل السحاب .. قال : ذاك منزلك .. قلت : دعاني أدخل منزلي ، قال : إنه بقي لك عمر لم تستكمله فلو استكملت أتيت منزلك .

ومن مظاهر الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم الكلام الإلهي المباشر

في المنام وفي اليقظة .. روى أحمد والترمذي وحسنه وعبد بن حميد واللفظ لأحمد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال : يا محمد ، أتدري فيم يختصم المלא الأعلى ؟ قال : قلت لا ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي أو نخري ، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض ، ثم قال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم المלא الأعلى ؟ قال : قلت : نعم ، يختصمون في الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات ؟ قال : قلت : المسك في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعة ، وإبلاغ الوضوء في المكاره ، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان في خطيبته كيوم ولدته أمه ، وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون .. قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام ..

وروى مسلم والبيهقي عن عبد الله بن مسعود قال : لما أسري برسول الله ﷺ فأنتهى إلى سدره المنتهى وهو في السماء السادسة ، وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض (إذ يغشى السدره ما يغشى) .. قال : غشيها فراش من ذهب ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس ، وخواتيم

سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً — المقححات — يعني
الكبائر ..

وفي رواية البخاري .. قال الزهري : فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس
وأبا حبة الانصاري كانا يقولان : قال النبي ﷺ ثم عرج بي حتى ظهرت
لمستوى اسمع فيه صريف الاقلام .. قال ابن حزم وأنس بن مالك : قال
رسول الله ﷺ : ففرض الله على أمتي خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى
مررت على موسى عليه السلام ، فقال : ما فرض الله على أمتك ؟ قلت : فرض
خمسين صلاة .. قال موسى : فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ،
فرجعت ، فوضع شطرها ، فرجعت إلى موسى ، قلت : وضع شطرها ، فقال :
ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فرجعت فوضع شطرها ، فرجعت
إليه فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعته فقال : هي
خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي ، فرجعت إلى موسى فقال : ارجع إلى
ربك .. قلت : قد استحيت من ربي ، ثم انطلق بي حتى انتهت إلى سدره
المنتهى ، فغشيها ألوان لا أدري ما هي ؟ .. ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل
اللؤلؤ ، وإذا تراها المسك .

ومن ألوان الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم النفث في الروع ..
وقد استشهد لذلك بما جاء في صحيح ابن حبان والحاكم وأبو نعيم في الحلية
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن روح القدس نفث في روعي : إن

نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ..
قال السيوطي في الإتيقان : وهذا قد يرجع إلى الحالة الأولى أو التي بعدها
بأن يأتيه في إحدي الكيفيتين وينفث في روعه ..

رابعا : نزول الملائكة إلى غير الأنبياء :

لم يقتصر نزول الملائكة إلى البشر على الأنبياء ، بل نزلوا إلى غير
الأنبياء وحادثوهم ونفذوا معهم ما أمر الله بتنفيذه ، والفرق بين هذا النزول
والنزول إلى الأنبياء أنهم ينزلون إلى الأنبياء بالشرع وينزلون إلى غيرهم
بالتوجيه الخاص الذي لا يتعدى من نزلوا عليه إلى غيره ..

الفرق — إذن — في الموحى به ، والفرق الثاني أن الملك لا ينزل على غير
الأنبياء بصورته الملكية مثل صلصلة الجرس .. وهذا ما نراه .. ونذكر
بعض ما ورد في ذلك من النصوص الواردة في القرآن والسنة :

يقول تعالى (وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك
واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع
الراكعين) .

ويقول : (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه
المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس
في المهد وكهلا ومن الصالحين) .

ويقول : (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ... الآيات) .

وقال الشوكاني في تفسيره عن قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) قيل : كان ذلك رؤيا في منامها ، وقيل : كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك .. وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نية ، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقصر والأبرص والاعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما ، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما في الحديث الثابت في الصحيح فلم يكن بذلك نية .

ونضيف إلى ما ذكره ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلا زار أخاه في قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لي في هذه القرية .. قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله تعالى ، قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه ..

ومما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولسكنم فيها ما تشتهي

أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم » [قال الشوكاني :
والظاهر عدم تخصيص تنزل الملائكة عليهم بوقت معين ، وعدم تقييد نفي
الخوف والحزن بحالة مخصوصة كما يشعر به حذف المتعلق في الجميع .

نزول الملائكة -- إذن -- ليس دليلا على النبوة ، والنبوة تكليف إلهي ،
والرسول حينما يدعو إلى رسالته فذلك لا أمر الله له بذلك .

وهل يسمى نزول الملائكة إلى غير الأنبياء وحيا أو لا ؟ الظاهر من
استقراء النصوص الشرعية اختصاص الوحي بما يكون للأنبياء ..

خامسا: الوحي إلى الملائكة :

إن التساؤل عن كيفية وصول الوحي من الملك إلى الرسول يستلزم
تساؤلا أهم عن كيفية وصول الوحي من الله سبحانه وتعالى إلى الوحي ...
ولا مجال للحديث عن ذلك إلا في إطار النصوص الواردة .. روى
أبو داود عن ابن مسعود قال :

إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا للسماء صلصلة كجمر السلسلة على
الصفاء فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، فإذا جاءهم جبريل
فزع عن قلوبهم فيقولون : يا جبريل ، ماذا قال ربك ؟ فيقول : الحق ..
فيقولون : الحق الحق .

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان بسند

حسن عن ابن عباس قال : بينا رسول الله ﷺ ومعه جبريل يناجيه
إذ انشق أفق السماء ، فأقبل جبريل يتضاءل ويدخل بعضه في بعض ، ويدنو
من الأرض ، فإذا ملك قد مثل بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يا محمد :
إن ربك يقرئك السلام ويخبرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين أن تكون
نبيا عبدا ، قال رسول الله ﷺ : فأشار جبريل إلي بيده أن تواضع ،
فعرفت أنه لي ناصح ، فقلت : عبد نبي ، فخرج ذلك الملك إلى السماء ،
فقلت : يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك
ما شغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا إسرافيل ، خلقه الله يوم
خلق بين يديه ، صافا قدميه ، لا يرفع طرفه ، بينه وبين الرب سبعون نورا ،
ما منها نور يدنو منه إلا احترق ، بين يديه اللوح المحفوظ ، فإذا أذن الله في
شيء في السماء أو في الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته ، فينظر فيه ،
فإذا كان من عملي أمرني به ، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به ، وإن
كان من عمل ملك الموت أمره به .. قلت : يا جبريل ، على أي شيء أنت ؟
قال : على الرياح والجنود .. قلت : على أي شيء ميكائيل ؟ قال : على النبات
والقطر .. قلت : على أي شيء ملك الموت ؟ قال : على قبض الأنفس ،
وما ظننت أنه هبط إلا بقيام الساعة ، وما ذاك الذي رأيت مني إلا خوفا
من قيام الساعة .

هذا وقد وردت أحاديث في كلام الله تعالى للشهداء . وفي كلامه

لأبي جابر بن عبد الله بن حرام بعد استشهاده ، وهذا من أمور الآخرة وله اتصال بما نحن فيه .

سادسا: إنكار الوحي والرد على المنكرين:

منذ أن بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته إلى قومه بدأ الإنكار والعناد ، روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدى ، لبطون قريش .. حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا ، قال : فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .. فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : « تب يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

واستمر الكفار في عنادهم وغيهم فادعوا أن ما جاء به من الوحي ما هو إلا افتراء ، ورد الله عليهم هذا القول متحديا لهم بأن يأتوا بمثل القرآن أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله . ثم أعلنها واضحة مدوية :

(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) .

وطلبوا الآيات التي تبعثهم على الإيمان ، وتدلهم على الصدق بزعمهم ،
وما كانوا إلا متعنتين ، يقول تعالى :

(وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية
ولكن أكثرهم لا يعلمون) . ويقول :

(ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا
إني معكم من المنتظرين) .

وحددوا ما يطلبون في بعض الأحيان ، ويتحدث القرآن عن ذلك
فيقول :

(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون
لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء
كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت
من زخرف أو ترقي في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا
نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) .

وبلغ بهم العنت أقصاه ، فطلبوا مثل ما أعطي من الوحي ليقبلوا على
الإيمان ، قال تعالى :

(وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله ، الله أعلم
حيث يجعل رسالته) .

وفي أحيان أخرى يطلبون من الرسول ﷺ أن يغير القرآن لأن أهواءهم
لا ترضى به ، يقول تعالى :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو
بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلى إني أخاف
إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) .

ولما يسؤوا من هذا الأسلوب ، أسلوب الطلب المتعنت والسؤال المتكبر لجئوا
إلى الطعن في الرسول ﷺ باعتباره حامل الوحي وناقله : يقول تعالى : (وقالوا
يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من
الصادقين) .

ويقول : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب)
ويرد القرآن عليهم هذا الاقتراء فيقول :

(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر تتربص به
ريب المنون ، قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم
قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا
صادقين) .

ويقول : (فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين) .

وحاولوا تشكيك الناس في الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه بشر مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وكأن المشابهة في الصورة أو الخلقة تمنع الاختصاص بالفضل والتكريم بالمزية .

يقول تعالى : (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبععون إلا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطعون سيلا) .

ويقول : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) .

ويقول : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليسأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا) .

ولا يسعنا في هذا المقام ، وأمام بيان القرآن الناصع إلا أن نقرر أنهم تخبطوا في إنكار الوحي ، فمرة يطلبون أن يكون ملكا ، ويتناسون أن البشر حين يلقى الملك

فلا مجال أمامه للإنكار ، وأن الرسالة في جوهرها اختبار للإيمان بالغيب ، وأن الرسول إلى كل أمة لابد أن يكون من جنسهم ومرة يعيرون عليه البشرية ، وما دروا أنها مظهر من مظاهر الإعجاز في نبوته .. حيث تميز عن البشر بعلم أراد الله تعليمه لهم ليبلغهم به وهو الوحي . قال تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » .

ومرة طلبوا آيات منه فلم يجيبهم إلى ما طلبوا ، إذ كان معه أظهر آية وهي القرآن ، وقد تحداهم به ، ولئلا يهلكوا إذ لم يؤمنوا .

قال تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) .

على أن الآيات كانت تتوالى منه ، فلم يؤمنوا ، وكانوا كما قال القرآن : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » وكما قال : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

وقالوا بأنه مجنون ، وعجيب أن ينتج الجنون ما يعجز عنه أصحاب العقول ، بل الإنس والجن مجتمعون .

وقالوا كاهن ، وما استطاع كاهن أن يعارضه ، أو يدعي أنه من طبقتهم ، وما شابه حديثه حديث الكهان ، ولا تناول ما يتناولونه بأسلوبهم الغامض أو بكلماتهم المحتملة للكثير من المعاني ، فضلا عما جاء به من الشرع المنظم لشئون العالم في عصره وبعد عصره ...

وقالوا ساحر ، وما اجتمع السحرة لمعارضته ، ولا ادعوا أن ما جاء به ينتج عن سحر ، وفنون السحر معلومة عند أهلها ، ولم يثبت عليه أنه تناول شيئاً منها ، وما ادعى أهل السحر أنه جاء بما يشبه أفعالهم ، وأي سحر يبقى على الزمان ويتحدى به الإنس والجان ، وما السحر إلا نفثات من الشيطان ومن الجان .. يستعبدون به بني الإنسان .

وليس هذا مجال الحديث المفصل في هذا المجال ، فلننتقل سريعاً إلى العصر الحاضر لنرى ماذا يقول المنكرون ، لقد قالوا مثل ما قال الأولون ، لكنهم ألبسوه ثوب العلم والبحث الحديث ، يقول الشيخ رشيد رضا في تفسيره : خلاصة رأى الماديين أن الوحي الهام يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج ... فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إليها نازلاً عليه من السماء بدون واسطة ، أو يتمثل له رجل يلقيه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب ، وقد يسمعه يقول ذلك وإنما يرى ويسمع ما يعتقد في اليقظة كما يسري ويسمع مثل ذلك في المنام .

ويحاول بعضهم إرجاع هذه الأحلام أو الرؤى في اليقظة أو المنام إلى معارف التقطها النبي من الأحبار والرهبان وبقايا الحنيفية فغاصت في أعماقه ، وتغلغلت في لا شعوره ، ثم تخيلت له ، ونقلها إلى الناس .

وهذا كله خيال من قائله ، وترديد لأقوال الجاهلين بافتراء الوحي والسحر وغير ذلك .

إن الرسول ﷺ كما كان يرجو أن يلقي إليه الوحي ولا يطمع في ذلك . قال تعالى : (وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) . وقال (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) .

وظاهرة الوحي منفصلة عن ذاته تمام الانفصال ، إنها شيء هاجم عليها ، ومنتزع لها ، وملق للعلم فيها ، ومن الأمور ذات الدلالة قوله ﷺ في حديث الوحي : فيكلمني فأعي ما يقول ، وقوله : فيفصم عني وقد - وعيت عنه ما قال ... أي إن الوعي ظاهرة ملازمة للوحي .

ولم يخلط الرسول ﷺ مرة واحدة كما يقول الدكتور صبحي الصالح بين شخصيته الإنسانية المتلقية المأمورة وشخصية الوحي الآمرة المتعالية بل كان في أول عهده بنزول الوحي يعجل بالقرآن مخافة ضياع بعض الآيات من صدره .

ومن الأمور ذات الدلالة أن القرآن حافل بالأمور المباشرة للرسول صلى الله عليه وسلم : « اتق الله » « فاستقم كما أمرت » « وأقم الصلاة » « وقل رب زدني علما » .

بل لقد تكررت كلمة « قل » أكثر من ثلاثمائة مرة في القرآن ليكون القارىء متأكدا من أن القرآن لا دخل فيه لناقله وهو محمد صلى الله عليه وسلم .. فهو مخاطب لا متكلم ، حاك ما يسمعه ، لا معبر عن شيء يحول في نفسه .

وفي آيات العتاب للرسول صلى الله عليه وسلم مظهر من مظاهر الهيمنة الإلهية الكاملة وعبودية الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن مظاهر الانفصال بين الوحي وبين ذات الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يتأخر نزوله في أوقات يرجى فيها النزول ، ويتتابع في أوقات لا يرى الناس فيها شدة الحاجة إليه كما في حادث الإفك وكما في فترة الوحي ، وكما في أمر أسرى بدر حيث لم ينزل القرآن بالحكم إلا بعد أن اجتهد الرسول صلى الله عليه وسلم وسار على أساس هذا الاجتهاد — وكذلك الأمر في تحويل القبلة .

وأظهر من ذلك وأبلغ اختلاف أسلوب القرآن عن أسلوب الحديث النبوي مما يدل على أن مصدر الكلام ليس واحدا وأن القرآن كلام إلهي معجز والحديث كلام بشري في أعلى مراتب البيان ، ومن هنا كان تقسيم الوحي إلى قرآن وحديث وتقسيم الحديث إلى قدسي ونبوي وظهور الاختلاف في الصيغ والمباحث والأساليب بين هذه الأقسام وإن كان موضوعها واحدا وهو الدين الإسلامي .

وبعد : فإن من أظهر الأدلة على فساد شبهات منكري الوحي ما احتوى عليه الوحي ذاته من تعاليم سامية ومعارف عالية ، وأحكام شاملة ، وهداية عامة ، وكشف لزيغ المحرفين من أهل الأديان السابقة على الإسلام ، وإبطال لأفكار الملحد من أهل النحل الفاسدة والمذاهب الكاسدة مما لا يستطيع بشر بل كل البشر بل الأنس والجن الإتيان بمثله .. وكل الدلائل على صدق الرسالة المحمدية . ، وإعجاز القرآن الكريم ، وصلاحيه هذه الرسالة العامة لكل مكان وزمان إلى أن يرث الله الأرض

ومن عليها مما يدخل في إثبات الوحي والرد على منكريه ، ليميز الله الخبيث من
الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعل له في جهنم أولئك
هم الخاسرون ..

د. عزت علي عيد عطيه

استاذ مساعد بكلية الشريعة بالقصيم
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أهم المراجع

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — صحيح البخاري .. ومسند أحمد .. وكتب السنة المعتمدة ..
- ٣ — الوحي المحمدي — للشيخ رشيد رضا .
- ٤ — مباحث في علوم القرآن — للدكتور صبحي الصالح .
- ٥ — مناهل العرفان — للشيخ الزرقاني .
- ٦ — دائرة المعارف الإسلامية — لوجدي .

